رأى فى الشعر

منذ سنوات قليلة قرأت أقصر مقال يمكن أن يكتب عن فن شديد العراقة مثل الشعر . كتبه هارولد ملفين الأستاذ بالجامعة الشمالية الشرقية بالولايات المتحدة ، وجعله مفتاحاً لقارئ الشعر فى كتاب ببليوجرافى معروف تصدره سلسلة « منتور » الأمريكية . ولأهمية هذا المقال القصير جداً أحب أن أنقله هنا بنصه ، وترجع أهميته فى نظرى الى أنه يلخص مايمكن أن نسميه النظرية الشعرية الحديثة ، وقد زودته بالهوامش والتعليقات اللازمة .

يقول ملفين :

ذكر إدوين أرلنجتون روبنسون[٤] أن الشعر « غير قابل للتعريف » ، ولكنه لا يحتمل اللبس فى النهاية وعدم احتماله للبس أمر راجع إلى أنه قد ظل دائما على ولاء – لا انحراف فيه – لطبيعته الأساسية الخاصة . أما عدم قابليته للتعريف فأمر مرده إلى أنه استجاب لعملية تجريب لا نهاية لها : فالشاعر يجهد نفسه ، ويلح على تصوير الحياة وتقديمها بلغة الحق والجمال . وهو متيقظ منتبه أبداً لاكتشاف أشكال ووسائل جديدة للتعبير ، حتى يجعل تصويره للحياة ملائماً ودالاً ذا معنى . ومن ثمة يسهم فى إثراء تراثنا الشعرى .

ولعل التقنيات (فنون التناول والأداء الشعرى) التى تبناها شعراء محدثون من أمثال ديلان توماس أو ت . إس . إليوت تبدو غريبة ومحيرة بالنسبة لقارئ مشبع بتراث هومير ودانتى وشكسبير . ولو أن القارئ تذكر أن هذه التجارب التى تثبت أنها تجارب شعرية بشكل أساسى ، هى وحدها التى ستعيش – لأمكنه أن يستمتع بمغامراته مع الشعراء الجدد .

ويسود اليوم سوء فهم خطير بالنسبة للشعر ، وقد أدركه إرشيبالد ماكليش[٥] حين أشار الى أن القصيدة ينبغى أن تكون ، لا أن تعنى . وبعبارة أخرى فالقصيدة تنتمى لتجربة ، ولا تنتمى لشرح أو تفسير . والشاعر لا يحاول أن يدبج ما يجوز أن يدبج فى النثر بسهولة . فهو يقول

---

(٤) شاعر أمريكى (١٨٦٩ – ١٩٣٥) يغلب عليه الاتجاه إلى الشعر المرسل والقصصى .

(٥) شاعر أمريكى معاصر (١٨٩٢ –) ينتمى إلى مدرسة التجديد التى قدمت شعراء كإزرا باوند واليوت وديلان توماس .

ما لا يمكن للنثر مطلقاً أن يأتى بمثله . وليس الفرق بينهما – أى بين النثر والشعر – فى مسألتى القالب Pattern أو المجاز Metaphor وإنما هو فرق فى طريقة التفكير والإحساس : ذلك لأن الشاعر حين يعبر عن « اللانهائى بلغة النهائى » فإنه يفكر بطريقة شعرية ، وسيلتها الرموز . فلسنا فى حاجة إلى أن نحلل هذا البيت :

« اجابتى ،

لا تزال سيفاً مصلتاً فى وجه سماء تتداعى » .

بمقدار مانحن فى حاجة الى أن نفهمه فحسب : ذلك لأنه ينبغى علينا أن نعيش القصيدة بلغة أسلوبها الخاص فى التعبير[٦] .

لقد أبلغنا روبرت فروست [٧] أن القصيدة « تبدأ بالسرور وتنتهى بالحكمة » وهى تؤدى الى نتائج عظيمة عقب أول سرور ينشأ من الاستهلاك ، ذلك لأن الشعر يضعنا فى مواجهة الحياة بتجربة تنتهى بالحكمة ، دون أن يعظنا كما يقول فروست .

وسواء انطلقنا نحو الفجر مع تلياخوس ، أووقفنا مع دانتى وفرجيل ، عندما يعودان ويتطلعان ببصريهما إلى النجوم بعد النزول إلى الجحيم ، أو أنصتنا إلى صوت وردزورث الرزين وهويذكرنا بأن « العالم فوق طاقتنا » – فإن قوامنا ينمو ، وهذا النمو هو الحكمة .

إن الذين فرغوا على التو من قطف العنب من الكرمة الغنية العظيمة « لتراثنا الشعرى يعرفون ألوان السرور التى تنتظر المبتدئ الذى قديكون خالى الوفاض إلا من قلب صادق ورغبة فى أن يحب ويعجب ، ومن الممتع أن نفكر مرة أخرى فى قراءة الأبيات التالية للوهلة الأولى :

المجد لله من أجل الأشياء المنقطة .

من أجل السموات ذات اللونين كبقرة مرقشة . »

وذلك كى نُلِمَّ بكل مافى عالم هوبكنز[٨] من عبقرية أخاذة ، أو أن نقف خاشعين صامتين مع هكتور وهويشرف من جدران طروادة على الإغريق الصاخبين ، فسيان عدنا إلى القراءة أو قرأنا للمرة الأولى : ذلك لأن كلا الأمرين تجربة بديعة .

وعندما تشتد توترات العالم وتغدو لا تطاق ، وعندما« تكسوا لأشجار وجه الغابة » ، وعندما

(٦) معنى ذلك أن الشعر يخلق عالمه الخاص به ، ولا يقاس بقوانين خارجة عنه . فالقصيدة كيان خاص له قوانينه الخاصة النابعة من ذاته . وهذا المفهوم فى إنشاء الشعر وتذوقه يعارض المذهب الذى دان له شعراء الإنجليز فترة طويلة فى العصر الحديث ، وهو مذهب دعمه الناقد ماتيو ارنولد ولخصه فى قوله : إن الشعر – فى أساسه – نقد للحياة .

(٧) روبرت فروست (١٨٧٤ – ١٩٦٣) شاعر أمريكى من أعلام المدرسة الحديثة التى تهتم بالمجاز والصورة .

(٨) جيرارد مانلى هوبكنز (١٨٤٤ – ١٨٨٩) شاعر أمريكى غزير المادة تنبه له كثيرون من الدارسين مؤخراً .

تختفى النجوم وتكف عن الضياء – فإن القلب – عندئذ – ينهل من الشعر ، مثلما تنهل من نبع خفى المياه المنعشة ، كى يعود إلى الصراع أقوى مما كان ، وأحكم فى اتجاهه إلى الانتعاش .

وليس الهدف من ذلك هو الهرب من الحياة . وإنما الهدف هو معاودة اكتشاف أهمية الأشياء ودلالاتها . فالشعر حين يصور الإنسان فى شتى مظاهر نشاطه ، يعود فيؤكد الحقيقة العظيمة التى تقول إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده .[٩]

---

(٩) عن : Good Reading, Mentor Books, New York 1952, P 113